

## لا بد من ثقافة تنزع الطابع السحري عن العالم والزمن

أي هوية يحتاجها الإنسان للعبور إلى المستقبل

فسي ظل انفتاح العالم على بعضه البعض وخفوت القوميات الكلاسيكية وتراجع الصراع الأيديولوجي وفي ظل التطور التكنولوجي والتواصل الرهيب، بات أكثر المفاهيم تعقيدا هو مفهوم الهوية، وإن اتفق الكثير من علماء الاجتماع على أنه مفهوم ثقافي بالأساس، فهناك اختلاف كبير حول عناصره الدينية والعرقية والجغرافية والتاريخية وغيرها، حيث يحتاج هذا المفهوم إلى فهم أكثر عمقا من مختلف الجوانب للاتجاه به إلى المستقبل، وتجذب سقوط الهوية الذي سيعني بالضرورة سقوط الخصوصية الثقافية وبالتالي الوقوع في الاستلاب.

محمد ماموني العلوي

إذ كانت الثقافة تشير إلى مجموعة العادات والممارسات واللغات والقيم ووجهات النظر العالمية التي تحدد الغايات الاجتماعية مثل تلك القائمة على العرق أو المنطقة أو المصالح المشتركة وغيرها، فإن الهوية الثقافية كمتخصص مجتمعي يحيل إلى الهوية الوطنية محتسب إنساني وقانوني وسياسي وديموغرافي، وخاصة أساسية ثابتة وطويلة الأمد تنظم الإدراك والعواطف والسلوك.

ولكي ننظر في الطرق التي يتم بها تمثيل خطاب الثقافة الوطنية وقوة التمثيلات لكسب الولاء القومي وتحديد الهوية الوطنية، سنناقش الإشكاليات الفكرية والسياسية والاجتماعية المتعلقة بالهوية والمواطنة، من خلال فحص رؤى بعض المفكرين والباحثين المغاربة حول المفاهيم والتدقيق في الشعارات والأهداف والوقوف عند الغايات والوسائل، ومقارنتها من زاوية ثقافية وسياسية وأيديولوجية.

## الهوية الوطنية

من وجهة نظر الفيلسوف والمفكر محمد سببيل، التي أدهاها في ندوة نظمتها مؤسسة محمد عبد الجباري نهاية يونيو الماضي، حول موضوع "الهوية والمواطنة"، أن الثقافة التي تظل أسيرة الماضي ستبقى معوقة عن التطور ومنتشدة عن الحاضر، إن لم تتفاعل مع الأشكال الحيوية الموجودة في المجتمعات الرائدة، أو على الأقل تلك التي قطعت خطوات كبرى في هذا الاتجاه.

التوجه نحو الهوية وأقنمتها وأسطرتها وإضفاء طابع غير تاريخي عليها قد طبع التاريخ العربي الحديث

وإذا كانت الهوية الوطنية تعبيراً يصف الإدراك الذاتي والسلوك الذي يشاركه الأفراد الذين يعيشون في الدول القومية الحديثة، فإنه يفترض مسبقاً وجود تجانس نفسي وثقافي بين مواطني كل دولة، بالإضافة إلى فكرة أنه يمكن اعتبار كل أمة فرداً جمعياً، مع خصائص مشابهة للأفراد التجريبيين الذين هم من سكانها.

فعدداً تكون الهويات الأساسية دون روابط وعلامات مهمة خاصة بالإنثوية، يتم بناء هويات أكثر هشاشة من خلال العرق على سبيل المثال، ولهذا فحضور الهوية كمرجع موحد لا يجد نفسه إلا في الدولة الوطنية، حسب الطوزي، وإنتاج المواطنة كمفهوم جامع ومختزل، ينتج مستقبلاً مشتركاً، لا ماضياً مشتركاً.

وإذا كان خطاب المواطنة لا يتجاوز الاعتراف، وخطاب الهوية يقع في استعداد الآخر، كما يعتقد المؤرخ والروائي حسن أوريد، في ندوة "الهوية والمواطنة"، فإن الحل يكمن في مجتمع لائق، يقرّ بقيم المساواة والحرية والاعتراف كذلك، لأن عدم الاعتراف يفضي إلى ردود فعل متشنجة، وقد تكون عنيفة، وفي تدخله أشار



الهوية الدينية ستترجع



## تحولات عاصفة تخرج المعنى السكوني للهوية

التاريخ العربي الحديث، وعلى المستوى المغربي كنموذج، أكد الطوزي أن تصادم الهويات داخل هذا المجال المتعدد حيث يقف وراء ذلك الفاعلون الأيديولوجيون، أي منتج الأيديولوجيا وليس الناس العاديون، وضرب مثالاً بأخر هذه التصادمات الناتجة عن إطلاق اسم كسيلة وما خلفه من مواجهة بين التيار السلفي أو الإسلام السياسي المنتج لهوية دينية والتيار القومي المنتج لهوية ثقافية والتيار الأمازيغي المنتج لهوية عرقية.

ولهذا السبب اعتبر محمد سببيل أن التوجه نحو الهوية وأقنمتها وأسطرتها وإضفاء طابع غير تاريخي عليها قد طبع التاريخ العربي الحديث. ويقول علماء الأنتروبولوجيا إن تعبيرات الهويات المواطنة المختلفة هي وسيلة لإظهار ما يحدث في العالم واستعارة للشدة والتواتر اللذين يميزان لقاء الثقافات المختلفة، لهذا يعتقد الباحث العراقي كاظم الموسوي، أثناء تدخله في الندوة، أن هناك ترابطاً جديلاً بين الهويات والمواطنة ما يجعلنا بحاجة إلى خلق جدلية بين الهويات المتعددة القادمة، وإذا كانت الهويات والمواطنة تشكل القيم المدنية وجزءاً أصيلاً من الثقافة السياسية للبلد، فهذا دفع كاظم الموسوي إلى التأكيد أن ما نحتاجه هو أن تكون الهوية عاملاً مساعداً لخلق حياة أفضل، وهنا دعا محمد سببيل إلى التفكير في كيفية الانتقال من ثقافة الذاكرة إلى ثقافة المستقبل، مشيراً إلى أن هذا هو الإطار الأنسب لطرح مسألة الهوية.

الخطاب الموحد، وقال إن هذا التوجه يفضي إلى هوية موحدة ومواطن موحد ولغة موحدة ومصير موحد ومشروع موحد. ونتيجة لذلك، من منظور تجريبي، يناقش محمد سببيل المسألة من جانب أن هناك هويات وليس هوية واحدة، كالهوية الاشتراكية والإسلامية والعرقية والهوية التقنية، مبرزاً أن موضوع الهوية إشكالي وفيه إغراءات ومخاطر ومزالق على اعتبار أن هناك رؤى وتصورات واستعمالات وتوظفات أيديولوجية وسياسية متعددة للهوية.

وإذا كان الطوزي الباحث في العلوم السياسية والأنتروبولوجيا اعتبر أن الخطاب الأيديولوجي قد يؤسس لهوية واحدة يمكن أن تكون مهيمنة أو الوحيدة في إطار معين، كما هو الحال للدولة الوطنية، فإن المفكر محمد سببيل يقرأ المسألة في التوجه نحو الهوية وأقنمتها والتيار الأمازيغي المنتج لهوية عرقية.

خمود البعد العشائري داخل المجموعات الإنسانية ككل جعل الهوية تتخذ طابعا ديناميكيا تتفاعل فيه عدة مستويات

فقط بما خلقته أزمة كورونا مجتمعياً واقتصادياً وسياسياً على المستوى العالمي والمحلي، بل يجادل الفيلسوف محمد سببيل بأن مجتمعاتها في طور الانتقال من فكر تقليدي تأملي إلى فكر تجريبي عقلاني ولو بالتدرج، وستعيش تحولات موضوعية سواء قبلنا بها أو لا.

وعلى هذا الأساس قد تكون الثقافة أو الهوية الوطنية القوية والمرتبطة بالتحولات العاصفة والانتقالية والمؤثرة في النظرة للحاضر والمستقبل والقيم، وفي ظل الظروف غير التقليدية التي نمر بها، مصدراً للقوة المادية اقتصادياً وارتفاع مستويات المعيشة والقيمة وإعادة اكتشاف رموز التاريخ الثقافي والفكري والحضاري الهوياتي.

وعليه، أقدم محمد سببيل على شرح منظوره لهذه الفرضية، بكون هذه التحولات العاصفة التي ستخرج مفهوم الهوية من تصورهما التقليدي إلى آخر حديث وديناميكي، مشيراً إلى أن التاريخانية التي دخلنا فيها تفرض علينا أشياء غائبة عنا، "هي أن اندراجنا في الثقافة الحديثة، دخولنا للبنوك ولباسنا العصري واستعمالنا للنظارات، واندراجنا في الحقل التقني، هو اندراج في ثقافة تنزع الطابع السحري عن العالم وعن الزمن، بشكل يؤدي إلى تغير مفهوم العقل والزمان".

## الهويات والأيدولوجيا

على الرغم من الخلاف العميق حول ما إذا كانت الهويات والأيدولوجيات ضرورة مجتمعية أو وجودية، سواء كانت فردية أو متعددة، فالثابت أن الهوية والثقافة السياسية ليست مجموعة متجانسة من القيم التي يتقاسمها جميع أعضاء المجتمع، بقدر ما هي تكوين متطور ومستمر للأيدولوجيات المتنافسة الموروثة من الصراعات السياسية الرئيسية التي من بها المجتمع الوطني.

لذا فهناك توجه صارم مبني على إنتاج هوية موحدة داخل دولة موحدة إما بإعادة إنتاج هويات هامشية وإماجها في سرد موحد، وهي عملية، يقول الطوزي، تتم من خلال كتابة التاريخ أو من خلال إنتاجات فكرية ذات طابع أيديولوجي وليس تاريخياً، وهو توجه يبني لخطاب موحد يمحو خطابات هويات هامشية تشوش على هذا

الباحث العراقي كاظم الموسوي إلى أن هناك ترابطاً جديلاً بين الهويات والمواطنة يجعلنا بحاجة إلى خلق جدلية بين الهويات المتعددة والمواطنة وربطها بمستقبل الأجيال القادمة، وهو ما نحتاج معه أن تكون الهوية عاملاً مساعداً لخلق حياة أفضل، وهنا دعا سببيل إلى التفكير في كيفية الانتقال من ثقافة "الذاكرة" إلى ثقافة المستقبل، مشيراً إلى أن هذا هو الإطار الأنسب لطرح مسألة الهوية.

## تحولات هوياتية

تقوم الثقافات كراس مال هوياتي اجتماعي بتجميع وإعادة إنشاء المعاني التي يتم تداولها في الحياة اليومية، وذلك بواسطة تحديد وإعادة تعريف نفسها في عملية تحول مستمرة، فالتعريف بالهوية الثقافية يمنح الناس مشاعر الانتماء والأمن ويوفر لهم إمكانية الوصول إلى الشبكات الاجتماعية التي توفر الدعم والقيم والتطلعات المشتركة، ما يساعدهم في كسر الحواجز وبناء شعور بالثقة.

فالهوية الثقافية كانت دوماً محط صراع بين نظرة قنوتية وسكونية أو اختزالية ونظرة حيوية دينامية، حسبما يعتقد محمد سببيل. وأكد سببيل أن القنوتية والاختزالية قطبان لازماً باستمرار طرح مسألة الهوية، مشدداً على أننا نعيش تحولات عاصفة تخرج المعنى السكوني للهوية، وهذا يشمل كل المجتمعات على كافة المستويات.

ونذهب سببيل شارحاً تصور، بأن التصور السكوني يمكن أن يكون مقبولاً إلى حد ما في إطار منطوق صوري، ولكن عندما يتعلق الأمر بالانتقال من المستوى المنطوق أو العقلي المحض إلى مستوى التاريخ والمجتمع، فإن ذلك يجعل هذه الهوية الثقافية تؤخذ في إطار ما يحكمها من سياق، مما يعني أن الهوية الثقافية هي هوية تاريخية متحولة، وأن إسقاط النظرة السكونية عليها فيه إجحاف.

وفي رده قال محمد الطوزي إن الهوية كما تحدث عنها سببيل، أي بوصفها دينامية وليست سكونية، هي هوية مبنية ومنتجة وليست مورثة، وهو ما يفسر الصراع الحضاري اليوم بين هذين النمطين. ويقول أستاذ علم الاجتماع محمد الطوزي إن خمود البعد العشائري داخل المجموعات الإنسانية ككل جعل الهوية تتخذ طابعاً دينامياً تتفاعل فيه عدة مستويات، مشيراً إلى أن الفاعل في هذا التفاعل هو الفرد بوصفه فاعلاً ومنتجاً وكياناً له عقل ومسؤولية واختيارات، الأمر الذي يجعل الفردانية تتخذ طابعاً مؤسسية تقوم عليها الحضارة الراهنة. فالتحولات الجارية حالياً غير مرتبطة

